الشعر والزمنية

بقلم الدكتور جميل الخياط

لا شيء غير الوقت يضبط مظاهر حياتنا جميعا ، صغيرها وكبيرها ، ويفسرها بدقة متناهيه ، في العلم والفن والسياسه والاجتماع ، فهو المقياس الوحيد الذي يفرق ما بين الحضاره والتخلف والغباء والذكاء والخطا والصواب وما بين الفن والهدر ، ويمكن ان نخضع له ما يضني افكارنا من تساؤلات دائمه .

والبشر في ضوء الزمنية اصناف : منهم اللاوقتيون الذين يعيشون خارج الزمن ، دون ان تؤثر فيهم حدوده وابعاده ، وهم القطيع ، اتخذوا اشكالا من التفكير بسيطة ومحدوده فتشبثوا بها ولم يحيدوا عنها ايثارا للعافية الفكرية واطمئنانا الى الكسل العقلي وتاكيدا للذات المتهاوية ، يولدون وينمون ويتكاثرون ويموتون آليا ، يتعشقون الماضي دوما ، في اكثر اشكاله جمودا وتحجرا، لا حاضر لهم ولا مستقبل ، ولا تطلع ولا طموح، ولا اهتمام ولا هموم ، وما اكثرهم ، ومنهم الذين اتفق توقيتهم الذهني بزمنية واقعيه صائبة ، وفريق ثالث نفذ الى الزمن وسبقه وحاول ان يتعداه بمراحل تختلف ما بين شخص واخر ، وما اقلهم ، ويضم هذا الفريق العباقرة والمجرمين والرواد والقادة والمبدعين والمجانين والمستبدين والمنتحرين ، الاصيلين في هذا وذاك ، دون ان يطرأوا لسبب خارجي او تلف عضوي او ارتباك اجتماعي .

ووقع تحت وطأة الاضطراب الزمني كثير من الضحايا ، في كل مكان وزمان ، وانتحر كثيرون وانحسر فريق الى المصحات العقلية ، ومن اكثر هؤلاء الضحايا عذابا الشعراء الحقيقيون ، واستطاع اصحاب المواهب أن يبدعوا وان يقدموا للبشرية اعمالا عظيمة ، ومنهم بيتهوفن الذي كان يقرع الزمن بتآليفه الموسيقية الهادرة، وجاء هتلر بتوقيت جنوني سريع فاراد ان يسحق القرن بسنة ، والسنة بيوم ، واليوم بدقيقة ، وان يقلب في ثوان وجه هذا الكوكب الارضي ، وان يلف بجملة صاخبة في خطبة تأريخا بأسره ، وشعبا كاملا بكيانه ، وسحقت الزمنية هتلر ولكنه خلف بحربه الشعواء زمنية جديدة في انحاء هذا العالم ما زالت تلفنا بدوامتها تشتتا وانبهارا ، وتشنجا وانفعالا ، ووحدة وغربة .

وقد يقع بعض رجال القطيع من الصنف الاول تحت وطأة الاضطراب الزمني حين تطرأ على حياتهم شؤون غريبة كأن يحصل فرد فجأة على جاه او ثروة او مجد عابر فيضطرب لديه التوقيت ، وقد تصل به الحالة الى الجنون او الانتحار ، او قد يتبوأ شخص ، في غفلة من الزمن وبصورة غير طبيعية ودون ان يكون مؤهلا ، منصبا كبيرا ويقع تحت سطوته كثير من الناس فتضطرب الزمنيه في ذهنه ، وقد يعاني من هذا الاضطراب كثير من الابرياء ، ولا شك ان الزمن هو المنتصر في هذه الحالات الخاصة .

واخطأ قسم من الشعراء القدامى والمحدثين التوقيت في نظمهم القصائد التي كانت تمثل ردود أفعال تفتقد فعلا آنيا او سابقا وتتطلع الى فعل حاصل بعد فترة النظم ، فقصيدة المديح كان الشاعر يكتبها وذهنه يدور في دنيا الممدوح واثر القصيدة في نفسه ومقدار الجائزة والاعطية ، وقصيدة الرثاء تتساءل في وقت نظمها عن الدموع والتأوهات والاحزان التي ستثيرها وقت القائها ، وقصيدة المناسبة تحلم بجو عاصف من التصفيق والاثارة والاستعادة والامجاد والنفعية .

كان الشاعر ينظم قصائده للاخرين ، بمعزل عن نفسه ، ولذا كانت اشعاره وسيلة وتسولا وتوسلا ،غايتها اثارة الحماس او الاعجاب بعد وقت نظم تلك القصيدة من منح اعطية او تصفيق جمع او اثارة اعجاب ، وكان الشاعر عاملا باجر ، مادي او معنوي ، له واجب معين لا يحيد عنه ، في عالم منغلق محدود ، ولهذا السبب بالذات ظل الشاعر يعيش لنفسه منعزلا ، وحيدا ، منفذا ومتلقيا ، يقلب همومه الشعرية بأسى .

وقصيدة الغزل ـ في اكثر الاحيان ـ تمثل رد فعل لفعل لم يحصل ابدا ، وكانت في اكثر نماذجها تفتقد التجربة ، مبعثها الحاجة الغريزية ، وقوامها الوصف الحسي لعينين او خدين او شفتين ، وافصاح عن تأوهات الشاعر المستمرة ، اما الحب بمعناه الحقيقي ، والتجربة الكامنة فيه المثيرة لاعمق ما فيالشعور الانساني من جذل غامر او توحد لا مثيل له ، فقد كان افعالا ضائعة وجدت لها ردود افعال مزيفة تتمثل في اكثر الاوصاف الغزلية في شعرنا القديم والحديث ، ويشكو بعض الشعراء ويبكون ويتأوهون ويتحرقون لحب لم يعرفوه او حبيب لم يروه ، اليست اعمالهم هذه ـ اذن ـ ردود افعال تتوسل فعلا ؟!

ولم يكن اكثر الشعراء يتطلعون الى المستقبل الا في دوائر الافعال التي يتوقعون ان تبرز بعد تلك الردود، ولا يعني الوقت عندهم شيئا ذا خطورة ، فالاموات لا

يعيشون اللحظة الحاضرة ، وفقدوا القدرة على التطلع الى المستقبل ، والاموات من الاحياء لا يعيشون الا تجارب مسبقة مضت واندثرت ، دون ان تحملهم على تأصيل تجاربهم الحاضرة والمقبلة ، ولا يفكرون في عالم الفن الا بمنطقية رياضية ، او بنفعية هادفة ، فمن من المدوحين يجزل العطاء ، واين الجماهير التي يمكن ان تثيرها هذه القافية او تلك ، تستعيد وتهتف ، ردود افعال هؤلاء الشعراء تتخذ من الوقائع الحاصلة في الماضي جوا يلف ابعادها وتطلعاتها وهمومها ، لم ينفذوا الى المستقبل ولم يسبقوا النماذج الموروثة او يبشروا بقيم جديدة ولم يتصدر الفعل عندهم رد الفعل مع توقيت طبيعي ما بين هذا وذاك ، وافتقدت نماذجهم الصدق الادبي واحيطت بهالة من الانفعال الكاذب والمبالغات المقيتة ، وخير لهم ان يفقدوا الذاكرة لمدة موقتة ولهم ان يستعيدوها بعد ذلك لتمتزج في اذهانهم الازمنة بابعادها الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل ، ومن يدري فقد يبحثون عن بعد رابع ؟!

كان التوقيت لا يعني شيئا بالنسبة لهؤلاء الشعراء، فهم يعيشون في بحبوحة من الزمن المنبسط ، لا تكثيف فيه ولا تحديد ، والمسؤولية فيه امر غريب ، ولم يكن الزمن يعدو بهم في سرعة هائلة الا حين يمتشقون الاقلام ليلخصوا الاحداث الجارية والافكار المعروفة بابيات شعرية موجزة غاية الايجاز ، تسقط الظلال وتجهض التفصيلات التي تهيىء للقارىء الجو الشعري بعوالمه اللامتناهية ، وبعد ذلك التلخيص يعودون الى الشمس فيقعدون فيها حقبا واجيالا .

والفرق بين الشاعر المتحضر المبدع والشاعر المتخلف المجتر يكمن في موقفهما ازاء الزمن وصدور ردود الافعال عندهما عن افعال حقيقية او مفتعلة .

وقد غيرت الحرب العالمية الثانية التوقيت في الشرق وفي الغرب حين جاءت بتلك الضراوة القاسية التي كثفت حياة الانسان الى اضعاف ما يعيشه عدا وتفصيلا على التقويم .

وساعدت المخترعات الحديثة على التكثيف الزمني وعزلت من امتد بهم الزمن وانبسط واستغرق اغفاءات طويلة تحت الشمس ... عمن اتحدوا مع الزمن بتوقيته الصائب فقدموا للبشرية خدمات طبيعية ... او عن اولئك الذين سابقوا الزمن بتحد وتصميم فنفذوا الى المستقبل بتطلعات رائعة مبشرين بقيم شعرية جديدة في عالم الانسان الآتي .

وقام بعض الشعراء المحدثين بعملية اتحد فيها الفعل برد الفعل حين عبروا عن تجربة او احساس او موقف وحين طمحوا الى تغيير وجه العالم الثابت ، واختلف التوقيت عندهم في التفكير والتوقد الذهني عن المجال المنبسط الذي يجدون انفسهم فيه ، غرباء ومنزعجين . وتكمن مأساة هؤلاء الشعراء في وحدة التوقيتين المختلفين المتمثلة ـ تعبيرا ـ في الرمز الذي يقود اجواءهم واحلامهم وتطلعاتهم في عالم الحبور الزمني الذي يعيش فيه الناس اشباحا متحركة وظلالا باهتة .

ولن ينحسر الرمز عن القصيدة الحديثة ما لم تنسجم احداث بلادنا المعاصرة مع المستوى التوقيتي السريع في ذهنية الشاعر المحدث ، وسيبقى هذا الشاعر ضحية للتوقيتين المختلفين والمتباعدين والصراع القوي الدائب بينهما ، في معركة الغباء والذكاء ، واغتيال التوقد الذهني اللماع في اشكاله المختلفة الكامنة والظاهرة ، وسيبقى الاغراق في الرمز مسيطرا حتى ينتهي على يد موهبة عالية تأتي فتقتلع الجذور وتهدر النسوغ ويتحد عندها التوقيت الخارجي بالزمنية الذهنية ، وتعلن بجرأة وتصميم ان الغباء ليس اعظم رأس مال في عصرنا الحاضر ، وان الاحتكارات الادبية والعوالم المغلقة في دنيا الفن قد تعفنت وان هؤلاء الذين لا يحبون ان يعكروا صفو الحلم الدائم واغفاءة العافية الفكرية الثابتة سيطردون من رحاب الفن ومظانه ، يصمهم العار بأنهم اموات احياء لا تنتظم افكارهم الزمنية المتوقدة .

مأساة الشاعر القديم تكمن في التوقيت المنبسط والاجواء المنغلقة تبعا لظروف العصر الثقافية ، والشعر عنده ضرب من عقل ، ومأساة الشاعر الحديث تكمن في التوقيت المكثف ، والانفتاح العالمي المتمثل في الثقافات الوافدة والمكتسبة ، بحيث اختلف توقيته عما هو حاصل في مجتمعه والاجواء المحيطة به ، والشعر عنده ضرب من جنون .

فما دام كلا الشاعرين يعاني الازمة نفسها بحديها المختلفين ، غباء وذكاء ، عقلا وجنونا ، انبساطا وتكثيفا ، فلم لا يتحدان في سبيل توقيت يجعل الفعل يسبق رد الفعل دون ان يمتزجا ودون ان يسبق الثاني الاول ،لقد فرق بينهما الزمن ويبدو ان اللقاء بينهما محال ، آثر الشاعر الاول ان ينأى بنفسه عن الزمن ويبتعد فينجو من الصراع الذهني الدائب الذي يميز الانسان الحاضر بين مخلوقات هذا العالم الارضي .

ان شعر الخطابة ورد الفعل المطلق لا يستقيم بنفسه دون سامع او ممدوح او مصفق او مغن ، فاذا اختفى الممدوح ، وقد فعل ، وانحسر المصفق وجد الشاعر نفسه متخلفا ما لم يبحث عن توقيت جديد وعن مضامين تنسجم معه ، وهذا ما حصل عند فريق من الشعراء ، حين آثر آخرون العيش في غيابات الماضي ، فاذا كبحنا التوقيت الزمني عند الشاعر الجديد وانتشلنا الشاعر القديم من رجوعيته وعيشه في غير عصره ، وممارسته اللاشيئية السائبة ، وانبساطه المتمتع بشموس ازلية ، استطعنا ان نحملهما على توزيع شعري جديد ، والصراع بينهما عبث لا يستسيفه الفن ، وهراء لا يرتفع الى مستوى المسألة وان كان مظهرا اجتماعيا حتمته الظروف .

جلال الخياط